التراث العربي
العدد (١٥٥) / خريف / ٢٠١٩

ظلالُ (سناء) في جواز السّفر

أ.د. محمّد عطا موعد *

كان ذلك في يوم شتوي لا أنساه من أيّام تشرين الثاني من عام ١٩٧٧م، جاءني تحت غزير المطر، وزعم أنّه قادم لتوّه من بيروت، وإذ رأت أختي الصغيرة عبير صديقي (حسّان بشّور) وكانت تلعب مع من تلعب من أخوتي وأولاد جارتنا أم هيثم تحت المطر أسرعتْ إليه وابتسماتها تعلو ثغرها، فبادرته قائلة: (بدك أخوي إلمْحمّد مو هيك؟) ابتسم لها قائلاً: إي ياشاطرة بسرعة نادي عليه، وقولي له: حسّان يريدك لأمر مهم جداً.

خرجتُ راكضاً، واستقبلتُه بابتسامة عريضة، ورحّبتُ به أيّما ترحيب، ثم قلتُ له: تفضل، فقال لي: (خذ طريق) جرياً على عادة الناس، فقلتُ: ياألله يا ألله، وصعد سريعاً إلى حيثُ غرفة الضيوف، وهي غرفة نومي أيضاً أنا وأخي خالد، ومن كان يحبّ أن ينام معنا من أخوتي، فالغرفة تفتح ذراعيها للجميع، حتى خالاتي وأخوالي وعمتي وعمّي وبعض أقاربي الذين كانوا يحضرون من (مخيم عين الحلوة بالقرب من صيدا في لبنان)....

*

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دخل صديقي (حسّان) الغرفة وكان يبدو عليه التعب، فقد حضر لتوّه من بيروت، وكان عادة ما يأتي إليّ متعباً، لانتقاله من (حيّ الدويلعة) إلى حيث أقيمُ؛ فكيف به وقد حضر هذه المرة من ذلك المكان؛ وليس من الحيّ القريب.

وما كاد يطأ الغرفة حتى أخرج من جيبه (شريط كاسيت) وقال لي: ضع هذا الشريط بسرعة في الآلة، فقد أحضرته لك خاصة، تناولتُ الشريط منه، كان شريطاً أنيقاً وسعره (مِحْرز) على ما يبدو، قرأتُ ما كُتب عليه: (مارسيل خليفة) فقلتُ له: من هذا؟ قال لي: هذا مغنّ لبناني ملتزم، يغني شعر محمود درويش، وضعتُ الشريط في الآلة وشرعت الآلة تصدح:

عُودوا أنّى كُنتم

فقراء كما كُنتم

غُرباء كما كنتم

يا أحبابي الموتى عُودوا

حتى لو كنتم قد متّم

أعجبني الشريط ... سَمِعَه أخوتي وأخواتي فنال رضاهم، وطلبوا مني نسخاً عنه؛ لأصدقائهم، ذهبتُ إلى محل بيع أشرطة الكاسيت اليتيم في شارع اليرموك، وطلبتُ أن ينسخ لي عدّة نسخ منه، وسألني بعد أن قرأ اسم (مارسيل) على (العلبة) من هذا المغني؟ عرّفته عليه، فأخذ الإذن مني بأن ينسخ نسخة خاصة من الشريط له، ثم أمّنته أن لا يبيعه لأحد من الناس...

ولكن هيهات هيهات فالشريط بعد أسبوع فقط انتشر في اليرموك، وفشا في الناس، وهكذا كان محسوبكم هو الذي نشر اسم مارسيل في ذلك الحيّ، ولكنّ صاحب المحلّ لم ينتظرني طبعاً كي أحضر له الشريط الثاني، فقد أحضره هو بنفسه من بيروت، ولما شاهدني أمرّ بالقرب من محلّه نادى عليّ، وقال: لي صَدرَ الشريط الثاني لمارسيل، وهذه نسخة منه هدية مني إليك.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سارعتُ إلى البيت، وقد عَدلْتُ عن إكمال طريقي، وناديتُ على من كان في البيت من أخواتي وأخواتي، قائلاً لهم: لدي مفاجأة سارّة لكم؟ قالوا: ما هي؟ فأخرجتُ الكاسيت من جيبي، وعلت الثغور منهم دهشة وفرحة، وسرعان ما خطفتْ أختي سناء الكاسيت ووضعته في آلة التسجيل، وشرع ينشد:

لم يعرفوني في الظلال التي
تمتصُّ لوني في جواز السفرْ
وكان جرحي عندهم معرضاً
لسائح يعشق جمع الصور
لم يعرفوني، آه... لا تتركي
كفي بلا شمسٍ،
لأن الشجر
يعرفني...
تعرفني كل أغاني المطر
لا تتركيني شاحباً كالقمر!

كلُّ العصافير التي لاحقتْ
كفيّ على باب المطار البعيد
كل حقول القمح
كل السجونِ
كل القبور البيض
كل الحدودِ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كل المناديل التي لوَحتْ
كل العيونِ
كانت معي
لكنهم
قد أسقطوها من جواز السفر!

عارٍ من الاسم، من الانتماءْ ؟
في تربة ربَّيتها باليدينْ؟
أيوب صاح اليوم ملء السماء:
.....

إذن لم يعرفوك (يا سناء)، لم يعرفوا مدى عشقك للحياة، مدى خفة دمّك الذي كان يفيض على أركان الدار من أُنسه وبهجته ما يفيض، لم يعرفوا مدى ذلك الدلال الذي كان يغدقه عليك أبوك، ومدى ذلك الحنين الرقراق، نعم الحنين الرقراق الذي كان يصبّه عليك صبّاً في كل نظرة كان يرنو بها إليك، لم يعرفوا تلك الطفولة الحلوة الرخيّة التي كانت منك، تلك الطفولة التي كانت تجعل الحج رحمه الله يمنع أدنى أيّ أذى عنك، حتى لو كان هذا الأذى غير مقصود من أي أخ من أخوتك الذكور، كان يقول لنا: (يلي بمدّ إيده على سناء أو على أيّ وحدة من «خَوَاته» البنات لا يلوم إلاّ نفسه، هؤلاء البنات هم ضيوف عندي)، ولعلّ هذا الحنين الكبير جعلك تطلقين اسم (حنين) على واحدة من بناتك.

لم يعرفوا أنّك في يوم ما وقد أحضرتِ (جلاءك) وكان يفيض بدرجة (ممتاز) وكنتِ صف أوّل ابتدائي فقالت لك سِتّك (عسلة): شدّي الهمة فقريباً ستذهبين أنت وأخوك (إمحمّد) إلى السعودية، تعملين معلمة هناك...

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وما أدراك ما المعلمة هناك، وكيف كانوا ينظرون إليها، وكيف كانوا يعاملونها، كانت المعلمة هناك تنفض عن تلك البلاد كاهل التخلف، وتمحو الأمية، وتنير درب الطالبات، ليشقّوا دربهم، فيكون لهم دور كبير في بعث تلك البلاد إلى الحياة...

والآن يا سناء تحقق حلم (سِتّك عسلة)، فأنت في دولة خليجية تقيمن عند ابنتك الطبيبة، وبالكاد قد حصلتِ على إقامة مؤقتة بعد أن دفعتْ ابنتُك (بيسان) ما دفعتْ من دراهم غير معدودات، وعند كل تجديد للإقامة تعاني(بيسان) ما تعاني، وتدفع ما تدفع من دراهم كلّ ذلك لأنّ جواز السفر؛ بل وثيقة السفر التي معك غير مرضيّ عنها في بلادهم الآن... والعجب كلّ العجب فهذه الوثيقة كان من يحملها قبل خمسين عاماً ممن كان يعمل في التعليم والإعمار له صولة وجولة، وكيف لا يكون له صولة وجولة وهو يعيد للصحراء ولأهلها الحياة... الصحراء التي أطاق بكدّه وجهده أن يجعلها جنّة الله في أرضه... وها هم الآن يردّون الجميل على طريقتهم لمن أنار الصحراء علماً ومعرفة.. وجميلهم هذا وصلني عام ٢٠١٣ وكنتُ تقدّمتُ إلى جامعة في بلادهم للعمل بها بعد أن خسرتُ جلّ تعبي وكدّي خلال أكثر من أربعين عاماً... فحمدتُ الله على أنْ جاء السفر في وقته المناسب؛ لعلّي أعوّض بعض خسارتي؛ فرحتُ أيّما فرحٍ، وعادت البسمة إلى ثغر الحجة والحج من جديد، عاد الأمل بالحياة لهم بعد الضربة القاصمة الثانية؛ فحمدوا الله على أن هذه (السفرة) ستجعلنا نقف من جديد، ونعيد إعمار البيت من جديد.... ولكنّ ذلك الحلم تبدد من جديد وموظفةٌ من الجامعة تتصل بي: وتقول لي: (طالَ الله عمرك) نعتذر عن قبولك في جامعتنا لأنك تحمل وثيقة سفر...

طال الله عمرك! عبارة قصّرت في عمر والدي، وربما طمست له آخر أمل كان في حياته؛ فقد تراجعتْ صحّتُه كثيراً، وأخذتْ تتدهور، وبعد أربعة أشهر من ذلك فارق الحياة...

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

طال الله في عمرك! عبارة نقلت أختي سناء إلى تلك البلاد متوسلة إقامة مؤقتة فيها، ونقلت ثمانية من أخوتي وأخواتي إلى البلاد الباهتة الباردة التي تعامل حامل تلك الوثيقة معاملة جدّ مختلفة عن معاملة بلاد الخليج...

طال الله في عمرك! عبارة ذكّرتني وقد كنتُ مُعاراً من جامعتي العريقة: دمشق إلى بلد خليجي ولدى انتهاء إعارتي قدّمتُ استقالتي لعميد الكلية، فقال لي: طال الله عمرك! هل ضايقك أحدٌ فجعلك تقدّم استقالتك؟ قلتُ له: لا والله! فأنا لم ألق منكم إلاّ كل ودّ واحترام، احترام جعلك تضعني في لجنة خاصة خاصة لاختيار المعيدين لها واسع الصلاحيات، لجنة يطمح أن يكون فيها كلّ أستاذ من بلدكم؛ لأنّ من كان فيها هم صفوة الصفوة من الأساتذة؛ وأنت يا دكتور إبراهيم آثرتني على زملائك وأصحابك فوضعتني فيها، فهل أقابل هذا بتقديم استقالتي لك؟ كل الموضوع أنّ مدّة إعارتي لبلدكم انتهت. فقال لي: لن أرفع الاستقالة للوزير، لن أقبل استقالتك، ولكنه بعد محاولات كثيرة مني قبلها على مضدد.

أجل يا سناء! لم يعرفوك ولم يعرفوني في الظلال التي امتصت منّا اللون، فغدوت وإياك بلا لون، وبلا ظلّ؛ لأنّا نمتلك وثيقة سفر..وثيقة تعكس ذلك الجرح المستمر النازف... الجرح الذي غدا أكبر من معرض يضمّ ضروباً من الصور عن مأساة لا تصدّق، يعشق جمعها سائح...

لم يعرفونا يا سناء، ومع هذا فكفيّ سيبقى بكفّك على الرغم من بون المسافة التي تفصلني عنك، فأنت الشمس التي أستمد منها طاقتي وأملي..

لم يعرفونا يا سناء! على الرغم من أنّ كلّ شجرة زيتون ومشمش وزيزفون وجوز كنّا نلعب تحتها في البساتين المحيطة من الحيّ الساحر الذي كان يعج بالحياة= تعرفنا، وهي تُباهي في معرفتنا؛ فالشام لن ولم تنسنا؛ لأنّ مشمش الشام وزيتون الشام وياسمين الشام يقول لنا من قلبه: طال الله في عمرك!

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أجل ياسناء! هم لم يعرفونا؛ ولكن المطر الذي كانت تلعب تحته أختك عبير وقد جاء صديقي حسان بكاسيت مارسيل يعرفُنا، وفي كل شتاء يسألني عن صغيرته عبير؛ فلا أجرؤ أن أخبره بأنّ وثيقة السفر قد ألجاتها إلى ألمانيا؛ ولكنّ مطر ألمانيا لا يحبّها مثلك يا مطر الشام!!

أجل يا سناء! لم يعرفونا؛ ولكن لي رجاء لديك فأنصتي جيّداً إليّ:

أريدك أن تبقي عزيزة في تلك البلاد، تستمدين العزّة من العزّة التي كان يحرص عليها الحج؛ فأنا لا أريد لوجهك المنير كالقمر أن يشحب؛ فهذا يجعل قمر الشام شاحباً حزيناً، وأنت يا سناء تحبين أن يبقى قمر الشام أحلى قمر في الدنيا. أليس كذلك يا سناء!

أجل يا سناء! لم يعرفونا، ولكن عصافير الشام وسنونو الشام وبساتين القمح الساحر قرب حيّنا الذي كنّا فيه تعرفنا.

صدّقي يا سناء أنّ السنونو الذي يطير بكثرة إلى جانب شرفتي حيث أقيم الآن يعرفك، ويسألني عنك وعن أولادك الذين تفرّقوا في بلاد الله الواسعة الباردة...

وصدّقي يا سناء أنّ القبر الأبيض! نعم القبر الأبيض الذي يضمّ زوجَك ذا القلب الأبيض وليس بعيداً عنه قبر أبيك يسألني عنك؟ لعلّه يعتب عليك لأنك تركته وحيداً وغادرت إلى ذلك البلد الخليجي، هو عاتب عليك لأنّ العيون هناك لا ترنو إليك، فهي لا تعرف قدر المعلمة التي عملت في التعليم على مدار أكثر من خمسة وثلاثين عاماً؛ غير أنّ عيون أطفال الشام، وشباب الشام تعرف من تكون سناء! فهم يعرفون معنى هذا الاسم، فهم ينتمون إليه، وهو ينتمي إليهم!

أجل يا سناء! سناء الصابرة صبر أيوب على ما تلقاه في تلك البلاد من ذلّ وانكسار كي تجدد إقامتها فيها؛ ولعلّ صبرك ينفد قريباً فتصرخين في تلك الوجوه البائسة القاسية المطموسة:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا تجعلوني عبرة مرتين!

.....

يا سادتي! يا سادتي الأنبياء

لا تسألوا الأشجار عن اسمها

لا تسألوا الوديان عن أُمها

من جبهتي ينشق سيف الضياء

ومن يدي ينبع ماء النهر

كلّ قلوب الناس... جنسيتي

فلتسقطوا عني جواز السفر

ولعلّ التعبير الأخير:

(كلّ قلوب الناس... جنسيتي

فلتسقطوا عني جواز السفر)

يعيدك الآن إلى صديقي (جواد) حيث كان يردده:

كل قلوب الناس... **(من ذي يزي)**

فلتسقطوا عني جواز السفر

فتعلو البسمة ثغركِ، ويشعّ منه فيضٌ من الحنين الذي تجرّعتِه من أبيكِ الحجّ فيَصِلُ قمرَ الشام وأولاداً وأخوة لك؛ بل يصلُ صديقي (جواد) نفسه القابع في بعيدِ بعيدِ البلاد...

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com